

الزرقاوي.. الجيل الثاني للقاعدة (1)

بدأ «قبضايا» في شوارع الزرقاء وتتلمذ على شيخ المجاهدين العرب عبدالله عزام ومنظر السلفية المقدسي دعا عشيرته بني حسن الى استرداد القدس.. وفي سجن سواقة اكتمل الخط الجهادي عند الناشط الاردني

شخصية الزرقاوي والابعد الثلاثة

الزرقاوي، هو أحمد فضيل نزال الخلايلة، وكنيته أبو مصعب، والزرقاوي لقب لم يعرفه الأردنيون من قبل، وهو نسبة إلى مدينة الزرقاء التي ولد فيها في الثلاثين من تشرين الأول (أكتوبر) عام 1966، معظم سكان مدينة الزرقاء التي تبعد نحو 25 كلم شرق العاصمة عمان من الطبقتين الفقيرة والتوسعة.

ولد الزرقاوي لأسرة فقيرة محافظة تنتمي إلى عشيرة بني حسن وهي من كبرى عشائر الأردن، معظمها من النبط، وكان يفتخر بلقبه في أوساط المجاهدين الأفغان على أنه قائد ولم يترك كل المتطوعين العرب والمسلمين، ويعتبر عبد الله عزام إلى جانب بني لندن، مؤسس ظاهرة الأفغان العرب، التي ما لبثت أن انتشرت في البلدان العربية بعد خروج جيوش الاتحاد السوفييتي من أفغانستان، وتوجه إليها أصابع الاتهام بأنها وراء الكثير من تصاعد المصادمات المسلحة مع الأنظمة الحاكمة. وعبد الله عزام القيادات التاريخية الأساسية لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وكانت ولا تزال تلك الجماعة تعيش حالة وفاء مع نظام الحكم منذ نشأتها، رغم حالات المد والجزر التي تعترى تلك العلاقة بين الفتية

نشأة الزرقاوي

نشأة أحمد فضيل البدوية وعلاقته الشخصية بوالده كانت الضلع الأساس في تشكيل شخصيته، تجذ الطبيعة فيه عقوبة وحبه للأخوين عقوبيا، وتجد إقباله على مساعده للأخوين كذلك عقوبيا، ولا تغيب بذاته عنه في فهمه أو علاقته مع الأخوين، ويقدر ما هو معروف عن البدوي شهامته وشجاعته وكرمه، فقد جيل البدوي أيضا على تمسكه بشأه، فلا ينسى إساءة عود أو خصمه أو غريمه مهما طال الزمن، ويمتلك البدوي في العادة قدرة هائلة على الصبر ليصل إلى ثأره، وما يتداول في الموروث الشعبي عن بدوي تجل في الأخذ بثأره بعد انتظار دام أربعين عاما، فيه دلالة عميقة على طول صبر البدوي، هذا الصبر لا يقتصر على الأخذ بالثأر، بل يتعدى إلى الصبر على شظف العيش وصعوبات الحياة، وانتظار ظف الثأر!

عاش الزرقاوي طفولته في رمزي في الزرقاء، وهو من الأحياء الشعبية المتكثفة، على بعد عشرات الأمتار من ذلك الحي، كان الزرقاوي يلعب مع أقرانه في المقبرة الواقعة في حي مصص، الذي يعتبر من أقدم الأحياء الشعبية في مدينة الزرقاء، التي ازدهرت نتيجة وجود أقدم معسكرات الجيش الأردني فيها، منذ بدايات تأسيس المملكة. أصبحت الزرقاء لاحقا مركزا لاستقطاب سكاني، كثيرين ممن يعملون خارجها، لانخفاض كلف المعيشة فيها. استتعت المدينة حتى أصبحت، ثالث أكبر مدن الأردن سكانا. انبثقت من الموظفين والصناع، بعد أن كانت موطن للبدو الذين يعمل أبناءهم في صفوف الجيش، ولأن مدينة الزرقاء انتمت بدايات بنائها وتوسعها بالعشوائية، كانت تفتقر للخدمات العامة، فلم يكن أمام الصبية يد من اتخاذ المقبرة - في بدايات نشأتها - مكانا للعب واللعب، لافتقار المدينة إلى المنتزهات، وأماكن اللعب واللعب، والمقبرة، كونها مشاعا لجمع الصبية في تلك المدينة الصغيرة حينها، كان يرثاها الأشرار والفقير، فعاش الزرقاوي منذ طفولته وعيشه، والخير والشرف أن معا، وتعايش مع التناقضات، علاوة على ما يتأثره قضاء الميراث الطويل بين القبور من تصالح مع التناقض بين فترتي الموت والحياة. في تلك المقبرة نسج الزرقاوي أهم صداقاته.

درس الزرقاوي حتى الصف الثاني الثانوي بحرص على معدل (87%) في نهاية الدراسة، لكنه لم يكمل الثانوية العامة، وعمل عام فكريا لا تعدى شيئا واحدا في بلدية الزرقاء/ قسم الصيانة، لكنه ترك العمل بناء على طلب والده.

عرف عن أبو مصعب في تلك الفترة أنه من «قبضاي» الحي لا يجرو أحد على التقدي على أي من صداقاته أو أقرابه، كانت نفسه أبية لا تقبل الصدام صاحب نخوة يليق طلب صداقاته ويذاع عنهم، كانت فخره وثأبه تبحث عن شيء يعطى عطفه للرجولة، وفعل شيء نافع.

بعد أن اشتد عودته في مدينة الزرقاء التي لا يكاد يخلو شارع من شوارعها من مسجد، وغادر سن المراهقة، أصبح مسجد عبد الله بن عباس المجاور لبيته، بيته الثاني. في هذا المسجد بدأ الزرقاوي نسج صداقات جديدة، الأصدقاء الجدد جعلهم ينتمي إلى جماعات إسلامية مختلفة، لكن كل تلك الجماعات على اختلاف اتجاهاتها، تجتمع على تحريض الشباب على الجهاد، فاخذت أفكار الجهاد والاستشهاد تتنامى عنده، بعد أن أصبح رواد المسجد، هم الأصدقاء الأقراب، مناغرا كل من تقاضيل الطفولة والصبا التي بنما في المقبرة، دون أن يغادر علاقته التي بناها فيها أيام الصبا.

هجرته الأولى إلى أفغانستان

الجهاد ضد الشيوعيين المحتلين لأفغانستان، كان الطريق المتاح في الأردن - مثل معظم الدول العربية حينذاك - لعشاق الجهاد والاستشهاد، مع أن فلسطين، كانت الأقرب للاردنيين عامة والزرقاوي خاصة، جغرافيا ووجدانيا، بحكم التركيبة الديموغرافية لسكان الأردن.

الرسالة التي وجهها الزرقاوي إلى أبناء عشيرته (بني حسن)، والتي يدعو فيها أبناء عشيرته إلى العمل من أجل رفع راية الإسلام والانخراط في الجهاد ضد كل من يحول دون مقاتلة الإرهابيين المحتلين لفلسطين، يعلن الزرقاوي أن جذور عشيرته تعود إلى القدس:

«يا قوم عودوا لدينكم فهو مجدمك وعزكم ومجد آبائكم وأجدانكم الذين نالوا شرف الانضواء تحت لواء صلاح الدين الأيوبي في حطين وشرف المشاركة في تحرير القدس مع قبائل أخرى، فانقطع سلاح الدين للقبائل التي شاركت معه أراضي حول القدس من أجل حمايتها من الصليبيين» وقال: «هذا مسرى جدكم حفاظوا عليه»، يقصد النبي صلى الله عليه وسلم، وكانت حصص «بني حسن» في الجزء الجنوبي الغربي من القدس حيث عاشوا وتكاثروا في قرى الولجة وعين كارم والمالحة وغيرها..

«يا قوم... اجادنا يوما حفاظوا على تلك الأراضي وحماوا القدس الشريف، فعاشوا عزة الإسلام وقوته، أباه مخلصين...»

لكن الزرقاوي شد الرحال بخبره من الشباب الأردني الإسلامي التحمس إلى أفغانستان، وأخر

الثمانينيات من القرن الماضي، حيث عبد الله عزام وأسمان بن لادن، بعد أن استمع إلى محاضرة القاها عبد الرسول سياف في الأردن، هذه المحاضرة كانت النقطة الفاصلة لديه في اتخاذ قرار الالتحاق بالمجاهدين في أفغانستان.

عبد الله عزام كان من أوائل العرب الذين توجهوا إلى أفغانستان، لمشاركة المجاهدين الأفغان قتل جيوش الاتحاد السوفييتي الداعم لحكم الشيوعيين هناك، اقتنع به لادن بالانضمام إلى المجاهدين في أفغانستان، بدل الدراسة في إحدى الجامعات السعودية، وكان يظنر إليه في أوساط المجاهدين الأفغان على أنه قائد ولم يترك كل المتطوعين العرب والمسلمين، ويعتبر عبد الله عزام إلى جانب بني لندن، مؤسس ظاهرة الأفغان العرب، التي ما لبثت أن انتشرت في البلدان العربية بعد خروج جيوش الاتحاد السوفييتي من أفغانستان، وتوجه إليها أصابع الاتهام بأنها وراء الكثير من تصاعد المصادمات المسلحة مع الأنظمة الحاكمة. وعبد الله عزام القيادات التاريخية الأساسية لجماعة الإخوان المسلمين في الأردن، وكانت ولا تزال تلك الجماعة تعيش حالة وفاء مع نظام الحكم منذ نشأتها، رغم حالات المد والجزر التي تعترى تلك العلاقة بين الفتية

كانت الأنظمة العربية الحاكمة - التي تربط معظمها بشكل أو بآخر بجملة السياسة الأمريكية - تتضج توجهات الشباب الالتحاق بالمجاهدين في أفغانستان، حيث كانت الحرب الباردة على أشدها بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتي، فكان المتطوعون يغادرون الأردن إلى أفغانستان جهرا نهارا، وتجمع أموال التبرعات بشكل علني من المساجد والأماكن العامة لتحويل سفر الأعداد الكبيرة من الشباب إلى أفغانستان، في الوقت الذي كانت الأموال الخليجية والسعودية تحديدا، تتدفق على المجاهدين الأفغان استجابة لطلب واشنطن الحريصة على إلحاق الهزيمة بخصمها اللدود - موسكو. في تلك الفترة، كان أئمة المساجد في الضفة الغربية وقطاع غزة، من يتشورن إلى المدرسة الثانوية القريبة من الأحياء السكنية، ويكفون من معلومات يعاملها فدائية ويجرون أنفسهم بأحزمة ناسفة في المناطق الحضرية، ولم يكن بعد أمام الزرقاوي الباحث عن فرصة للجهاد من توجهه إلى أفغانستان، للالتحاق بعبد الله عزام، وأخر الثمانينيات من القرن الماضي.

تلقى الزرقاوي تدريبه العسكري، ونمت ثقافته الدينية والسياسية في ظل القتال الحثيث من المجاهدين في عرب وأفغان مع جيوش الاحتلال السوفييتي، شارك في فتح خوست عام 1991 وشهد دخول المجاهدين إلى كابل، قاتل على أسخن الجبهات وتحديدا مع جلال الدين حقاني وقلب الدين حكمت يار، وهما الزعيمان الأفغانيان المطرانيان اليوم على القوائم الأمريكية إلى جوار أبو مصعب الزرقاوي.

محنة أفغانستان

في أفغانستان تشكل الضلع الثاني من شخصية الزرقاوي، وكان هذا الضلع هو الأساس في تشكيل نمطه الفكري، النصف الأول من هذا الضلع شكله وأسس فكر عبد الله عزام، واكمل لاحقا، عصام البرقاوي اللصاق بالمقدس، أبو محمد المقدسي الذي التقى معه عام 1989 في بيشارو بأفغانستان.

قاتل الزرقاوي ضمن جبهات الأفغان جاء أقرب إلى خط عبد الله عزام، الذي عرف بشخصه الفائق مع العرب، وقد تأثر به كثيرا؛ كان يقرأ كتاباته، يستمع إلى محاضراته، يردد أوقاله كثيرا.

بعد انسحاب القوات السوفييتية من أفغانستان، واشتعل القتال بين الفصائل الأفغانية، لم يعد للمجاهدين العرب عدو يقاقلونه، مما قد يكون أسهم في تخبز أحلامهم الجهادية بأفغانستان، فما كان أمام المجاهدين العرب الجهاديين على العودة إلى بلدانهم، دون التعرض لمخاطر أمنية إلا العودة، والبحث عن عدو جديد، والنبس إلى هذا ما نفع الزرقاوي للعودة إلى الأردن، ليتأسس تنظيم، يجسد رؤياه، الفائق مع المقدسي فلسطيني المولد، القادم من الكويت، حيث كان أهله يقيمون - على ذلك منتصف عام 1993، بهدف تبعية الشباب بالفكر الذي يؤمنون به، عبر حلة أولى ترو جمع السلاح والقنابل، التدريب الوال، والقيام بعلميات عسكرية ضد إسرائيل ثانيا.

بدأ أبو محمد المقدسي النظر الأساس لهذا التنظيم - الذي أطلقوا عليه تسمية جماعة التوحيد - بإلقاء الدروس والمحاضرات في المساجد وأماكن تجمع الشباب، بهدف ضمهم إلى مجموعتهم الجديدة، وجعلهم بدأ فهم المقدسي والزرقاوي وكانوا العمدة الخبرة التنظيمية، فوقعوا بشراك الأجهزة الأمنية الأردنية بعد وقت قصير من بدء العمل، فزع بهما مع بقية أفراد التنظيم بالسجن في 29 آذار (مارس) عام 1994، وقدموا للمحاكمة أمام محكمة أمن الدولة، بقضية أطلقت عليها السلطات الرسمية الأردنية اسم بيعة الإمام.

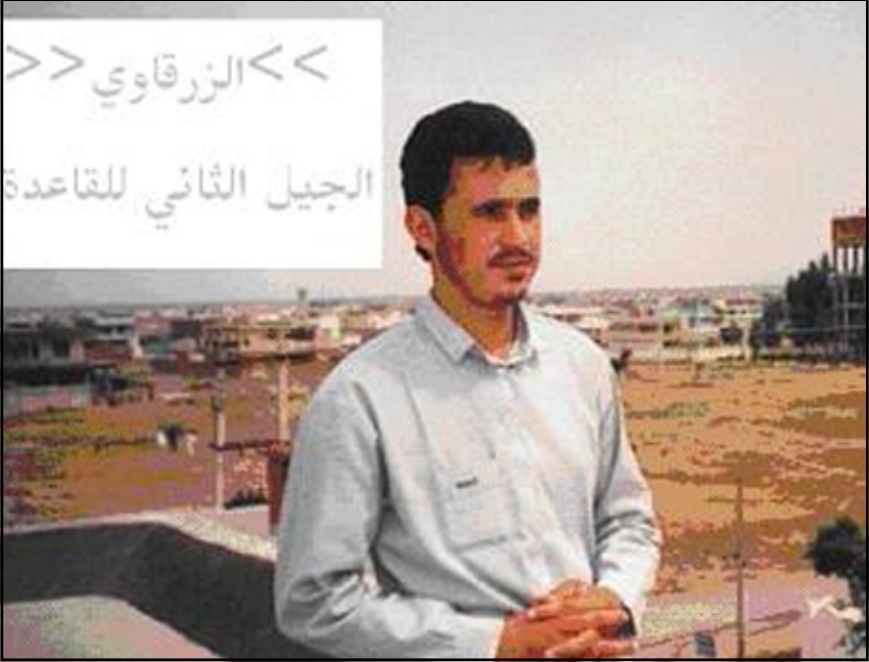
بيعة الإمام

كان تأسيس جماعة التوحيد مع المقدسي الذي قاده إلى سجن دام خمس سنوات الخطة العملية الأولى في رحلة الزرقاوي اللاحقة، وكان السجن المحطة الأهم في تكوين شخصيته.

لم يكن لرحلة الزرقاوي الأولى إلى أفغانستان أهمية كبيرة في تكوين شخصيته، إذ لم يتسن له في تلك الفترة أن يكون أكثر من عنصر بين آلاف العناصر العربية التي توافتت إلى أفغانستان، في وقت بات القتال فيه بين المجاهدين وجيوش الاتحاد السوفييتي في نهايته، فكان أن فقدت سمات القتال لها، مما أفقد الجميع - بين فقهيم الزرقاوي - فرصة اظهار مهاراتهم وتمايزهم.

كانت للسجن بصمات واضحة المعالم في شخصية الزرقاوي التي تبلورت لاحقا، وأصبحت شخصية حديثة لا وجود للون الرمادي فيها، إذ أصبح رجال الشرطة بكل تخصصاتهم، والقضاة بكل مراتبهم ومواقفهم وكل أركان الحكم، في نظره، أعوانا للأنظمة الحاكمة، التي هي وفق ثقافته طواغيت، يجب محاربتهم.

بعد انتهاء مرحلة التحقيق، رحل الزرقاوي إلى سجن سواقة الصحراوي الذي يقع على بعد خمسة



أبو مصعب الزرقاوي

التعرف على تفاصيل قضيتكم التي تابعتها عبر وسائل الإعلام، فهل أنتم على استعداد لتحدثوني عنها بالتفصيل، وأعدكم بنشر روابكم بوسائل الإعلام، رحبوا في أجمل ترحيب، ووضع الزرقاوي أمامي كواب من الشاي، مع أمتع صدي، وأشعرني بالراحة والطمأنينة، ودامت الجلسة أكثر من ساعتين، كان النقاش خلالها محصورا مع المقدسي حول التطورات السياسية بالمنطقة، ولم يتدخل الزرقاوي بالنقاش إلا مرة واحدة، حين سألتني عن المعاملة التي قدمه لغيره أثناء فترة التحقيق قبل ترجلي إلى سجن سواقة، بعد أن أستمع أبو مصعب إلى اجابتي، حدثني بما جرى معه خلال اعتقاله بززنة انفرادية على مدى ثمانية أشهر ونصف الشهر، وقال أنه فقد آثاره قديمه نتيجة التفرحات التي أصابتهم جراء التعذيب الشديد، أدركت مكانها، أنه إذا ما تسنى للزرقاوي الخروج من السجن فسيفادر الأردن فوراً، بلا عودة!

الزنازلة الانفرادية

بعد أسبوع من وصولي إلى سجن سواقة، وضعت إدارة السجن الزرقاوي في زنزانة انفرادية، عقوبة له على تلاسه مع أحد الحراس، لكسر شوكته بين مجموعته، كونه أميرهم، حاول المقدسي ورفاقه، مقاومة إدارة السجن لإبعاده عنهم، لكن اقتضى أسبوع من المعاملة السليمة، فقُرت مجموعة الزرقاوي العصيان داخل السجن، وطلبوا منا نحن المعتقلين السياسيين أن نتضامن معهم، ففعلنا، فقام الموقف وازدادت حدة التوتر بين الإدارة من جهة، والقاضي كامل العتقطن من جهة ثانية، ولما وصلت الأمور إلى حافة الصدام، اقترح العتقطن السياسيين أن أقاض باسم الجماعة إدارة السجن لعادة الزرقاوي، وافق المقدسي على المقترح، فابلغت الضباط المناوبين بضرورة النقاش لإيجاد مخرج لازمة، قبل أن تتفارق الأمور وتصل إلى ما لا يحمد عقباه، ورافقني للمقاض أبو مصعب من مجموعة الزرقاوي، فالتقينا مع مدير السجن حينذاك إبراهيم خشاشنة، لكنه لم يبد مرونة، فنقصاع الموقف، وبلغ العاصم أوجا، أغلق المعتقطن كاميرات المرابطة، لعلنا ألسرة الحديدية وصنعوا منها أدوات حادة استعدادا للززال، أغلقوا الأبواب الرئيسة لتقسيم مائةين رجال الأمن العام من الاقتراب للسجن، ففعل بالأمر مدير السجن الشريف أبو عصام، الذي وصل إليها قرابة الفجر، فتأوت معهم ثيابة عن المساجين لإخراج الزرقاوي من الزنازلة الانفرادية، فوافق على أن يتم التفتيش في اليوم التالي، حفظا لما وده مدير السجن، وحين عاد لممارسة إمارته على رفاقه، وعاد المقدسي الذي تولى الإمارة أثناء غياب الزرقاوي إلى البيت والتأليف.

شبكة هي الأقوى في منطقة الشرق الأوسط، مع الجهات الرسمية داخل السجن، فهو جدي في غاية الجلاقة، مهيب الجانب، يحصر التعامل معهم في أضيق الحدود الرسمية، لا يسمح لأدارة السجن أن تتعامل مع أحد من مجموعته إلا من خلاله، مع أنه كان يعيل إلى الانطواء والعزلة لدرجة أنه كان يلقب بالفريب، وهو اللقب الذي سجل اسمه به عند تطوعه للقتال مع المجاهدين في أفغانستان، كان يحب هذا اللقب ويحب أن يناديه الآخرون به، ويوقع به رسائله وبطاقاته لنويه.

أن يكون قام بأكثر من البحث والتأليف والاجتهاد، إذا كان ذلك حال من قرأ كتب المقدسي وتأثر بها، فكيف سيكون حال أبو مصعب الذي أسس معه تنظيمًا وقضى معه في السجن سنين عدة.

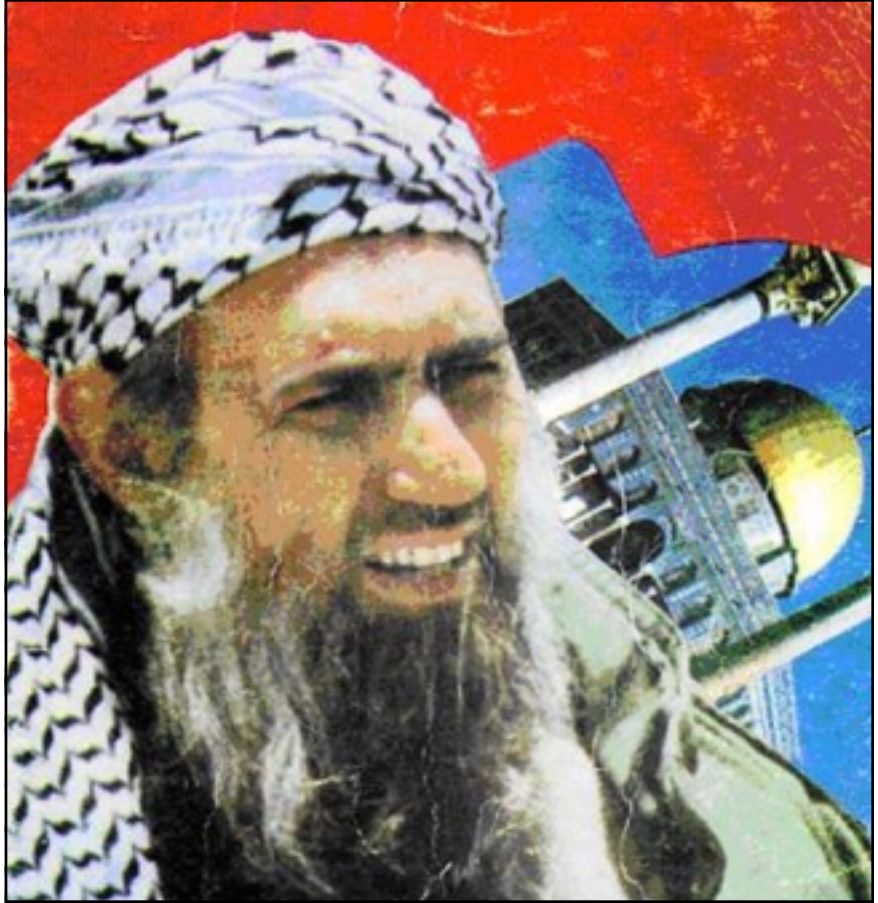
عاش الزرقاوي الفترة الأولى من سجنه في كنف المقدسي، يتلمذ على كتبه وأفكاره، مستكتما لما رسخه العروبي والإسلامي للمنهج السلفي الأصولي، له كانت تجري بين المقدسي وبقية قادة الفكر الإسلامي في الأردن، المعتقطن معهم بذات السجن، في تلك الأثناء كان الزرقاوي يعمل على تطوير ثقافته بالعلوم الشرعية، حفظ القرآن الكريم عن ظهر قلب، هذا الشخص الذي كان يطمئه المقدسي، لم يكن يفكر بنظر الزرقاوي، فاستطاع بشخصيته الكارزمية التي يمتلكها، استقطاب أعضاء التنظيم في السجن ليسلموا له راية الإمارة، ويات هو الأمر النهائي للمجموعة داخل السجن، وأخذ يفرض آراءه على كل أعضاء المجموعة ومن فهم المقدسي، الذي انزوى جانبنا، متفرغا للكتابة والتأليف. كان ذلك في صيف عام 1996.

هكذا التقيت بالزرقاوي

في ذلك الصيف، قادتنى مهنة المتاعب إلى سجن سواقة - حيث يوجد الزرقاوي - اثر مقالات صحافية كتبتها منتقدا السياسية الداخلية لرئيس الوزراء الأردني حينذاك عبد الكريم الكباريتي، خاصة لجهة الحريات العامة وسياسته الاقتصادية التي أدت إلى رفع سعر الخبز، وهو المادة الغذائية الأساسية لعامة الأردنيين، مما أدى إلى اندلاع احتجاجات عنيفة في مختلف أنحاء الأردن.

خلقت حملة الاعتقالات في ذلك الصيف واسعة، شملت معظم ألوان الطيف السياسي في الأردن؛ من المرصيين في أقصى اليسار، إلى الإسلاميين في أقصى اليمين، وطوال أكثر من شهرين قضيتها بالسجن، قبل أن يفرض علي بندخل ملكي، لم يلف أبو مصعب نظري داخل السجن سوى مرات محدودة، خلاف معلمه وأبيه الورحي أبو محمد المقدسي الذي كان يحتل كامل المشهد.

كان أول من استقبلني لدى وصولي سجن سواقة، النائب ليث شبيلات الذي تربطني به علاقة شخصية قوية، ومنذ اللحظة الأولى، نبهني إلى ضرورة تجنب زيارة غرفة الزرقاوي وجماعته، وقال لي: أنا نائب طروحاني ومنطقتي إسلامية ولا يقبلونني، فكيف ستكون نظرتهم إليك وقد لست إسلاميا، لكن حين أحس بضروبي الصحافي في التعرف إليهم، قال لناصحا: إذا كنت لا تريد الأخذ بنصحتي، فقد حذرا في كلامهم، فإن ضيفوك كواب من الشاي، فهذا مدعاة لطشخان، وإلا فاحسن الخروج من عندهم بسرعة كما أحسنت الدخول، زاد هذا الحديث من فضولي الصحافي، فتوجهت منذ اليوم الأول إلى زيارتهم، كان يجلس في صدرها أبو محمد المقدسي، وبعد إلقاء التحية عليهما قدمت نفسي لهما قائلا: أنا صحافي متابع للقضايا السياسية، ولا أنتهي لأي من الجماعات الإسلامية، لكن لدي الرغبة في



عبد الله عزام

كان الزرقاوي داخل السجن إنسانا بسيطا، هادئا، كثير الصمت يقضي أوقات فراغه بحفظ القرآن والقراءات الدينية الأخرى أما القراءات الأدبية أو السياسية أو أية قراءات بعيدة عن المواضيع الدينية، فلا مكان لها عنده، وكان يهتم بممارسة التمارين الرياضية